عتبة العنوان في رواية صنع الله إبراهيم – دراسة تحليلية

إعداد

أماني متولي عبده

مدرس مساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسوان

ملخص البحث:

يُعَدّ صنع الله إبراهيم من أبرز الروائيين في جيله؛ فهو كاتب متميز استطاع التعبير عن هموم الواقع المصري بصورة متمردة، وارتبطت أعماله الروائية بتاريخه الذاتي وسيرته الذاتية الخاصة وبتاريخ البلاد عامةً.

ويأتي العنوان الروائي عند صنع الله إبراهيم بوصفه عتبة نصية تخدم العملية الإبداعية نفسها؛ فمن خلاله يلج المتلقي عالم النص، وتُفتَح له مغاليق الدلالات؛ حيث يمثل العنوان بالنسبة للمتلقي وسيلة مساعدة لفهم ما غَمُض من النص، ويعد العنوان مفتاحًا ينطلق منه المتلقي في قراءته للرواية.

ومن ثم عزمت الباحثة على تحليل عتبة العنوان الروائي عند صنع الله إبراهيم بوصف العنوان منطلقًا سرديًا يعبِّر عن فكر صاحبه، ويختاره بعناية، وهو يمثل ما يمكن أن يُطلق عليه (النص الموازي)، ويعد صورة منه؛ فالعنوان يحمل جزءًا من رسالة النص في عمومه، وله دور مهم في فتح مغاليق النص، وإضاءة عتمته، وسبر أغواره، ويمكن أن نستهدي به في تحديد رسالة الرواية نفسها.

فلكل كاتب منهجية في اختيار عنوانه، وبنيته، وأسلوبه، وكلماته، ورمزيته؛ بل إن من الكتاب من يقسم كتابه إلى عناوين، يجعل لكل فصل عنواناً، لكن الرواية والشعر يندر فيهما هذا التقسيم، ويدخل العنوان في باب عتبات النص، وهذا المفهوم يشير إلى أن النص السردي الروائي قبل الولوج إليه لا بد من المرور بالعتبة الأولى وهو العنوان.

وإنّ كل عنوان روائي يحمل في دلالته قضية مهمة عند صنع الله، يتم تناولها في الرواية نفسها؛ فالعنوان الروائي يُعدُّ مدخلًا لعرض القضية الأساسية عنده، وهو المحور الأساسي لمفهوم البينة الدلالية للرواية، ومعرفة الأحداث الداخلية والهيئة العامة التي تتركب منها الرواية.

الكلمات المفتاحية: عتبة، عنوان، الرواية، صنع الله.

The Threshold of the Novel Title in the Novels of Sonallah Ibrahim: An Analytical Study

Abstract

Sonallah Ibrahim is regarded as one of the most prominent novelists of his generation. He is a distinguished writer who was able to express the concerns of the Egyptian reality in a rebellious way, and his novels were linked to his own history, his own biography and the history of the country in general.

Sonallah Ibrahim deals with the novel's title as a textual threshold that serves the creative process itself. Through the title, the recipient can enter the world of the text, and the semantics become clear to him. The title serves as a means of helping the recipient to reveal the ambiguity in the text. Thus, the title is a key from which the recipient proceeds while reading the novel.

Accordingly, the researcher attempts to analyze the threshold of the novel's title of Sonallah Ibrahim by describing the title as a narrative starting point that expresses the thought of the author, which he chooses carefully. It also represents what can be called "the parallel text" or the image of the text. Generally, the title conveys part of the message of the text, and it has a significant role in uncovering the obscurity of the text, illuminating its darkness, and exploring its deep meaning; therefore, we can use it as guidance in defining the message of the novel itself.

Each writer has his own methodology in choosing the title, structure, style, words, and symbols. Some writers prefers to divide their books into titles, giving every chapter a title, but novel and poetry rarely have this division, as the title is included in the thresholds of the text. Consequently, this concept indicates that the narrative text must pass through the first threshold, which is the title.

According to Sonallah Ibrahim, each novel title carries an important issue, which is deeply discussed in the novel; the title of the novel represents an introduction to presenting the writer's main issue. It is the main axis of the concept of the semantic structure of the novel, and the way of identifying the internal incidents as well as the general structure from which the novel is composed.

Keywords: Threshold, title, novel, Sonallah

مقدمة:

يعد العنوان الروائي المرحلة الأولى من مراحل قراءة النص، والعنوان الروائي يختلف عن غيره من عناوين الكتب ذات الطابع العلمي؛ ففي الأخير يكون العنوان – في الغالب – محددًا واضحًا جامعًا مانعًا لا يحتاج لتفسير أو تأويل، يعبر بصورة مباشرة وصريحة عن مضمون الكتاب ومجاله وتخصصه، لكن الأمر يختلف في العنوان الأدبي؛ فعنوان الرواية يحمل – في غالبه – رمزية وإيحاءات تثير انتباه المتلقي وتحفزه على الولوج لعالم النص؛ بحثًا عن مفهوم العنوان، وبحثًا عن العلاقة القائمة بين عنوان الرواية ومضمونها الداخلي، وبحسب الكاتب تكون مغاليق العنوان وتمنّعه على المتلقي؛ فقد ينتهي الأمر بفهم العنوان على حقيقته بعد الانتهاء تمامًا من قراءة الرواية.

" ويعدّ العنوان من أهم العناصر المشكّلة للنص المحيط أو كما يسمّيه(جيرار جنيت) بالعتبات؛ إذ إنّ العنوان من العتبات النصيّة، وهو البوابة الرئيسة التي يلج عن طريقها المتلقي إلى النص قبل التوغل في أدغاله " [١]؛ فعنوان النص الروائي هو العلامة التي توضح دلالة النص ومحتواه الداخلي، وهو العتبة الأولى التي تواجه المتلقي وترمز إلى محتوى المادة الداخلية.

ومن ناحية أخرى فإن " العتبات مداخل مؤطرة لاشتغال النص وتداوله؛ لأنها تحدد نوعية القراءة، بما لها من تأثير مباشر في القراءة؛ فهي تضع النص منذ البداية في إطار مؤسسة ثقافية وأدبية، يكون لها في الغالب دور حاسم في توجيه القراءة والتأثير في القُرّاء، بمعنى منحهم تصورًا مسبقًا للنص يكون له تأثير على نوعية إدراكهم له "[٢].

---

(١) الاستهلال السردي في الرواية السعودية المعاصرة: غازي القصيبي وتركي الحمد نموذجًا، منصور بن محمد بن راشد البلوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١٢م، ص٢١.

(٢) عتبات النص الأدبي (بحث نظري): حميد لحمداني، بحث منشور بمجلة علامات، م١٢، ج٤٦، المغرب، ٢٠٠٢، ص٢٣.

وظائف العنوان الروائي:

إن العنوان لا يعمل على ضبط المعنى والمبنى فقط؛ بل إنه يعمل على التبئير البصري الذي لا يمكن إغفال أثره في استقطاب المتلقي، وإقحامه داخل النص الروائي، وترغيبه في التعاطي الإيجابي مع الرواية.

يختصر (جيرار جينيت) وظائف العنوان في العناصر الأربعة الآتية[١]:

١- وظيفة تعيينية: من خلالها يعطي الكاتب اسمًا للكتاب، يميزه بين الكتب الأخرى.

٢- وظيفة وصفية: تتعلق بمضمون الكتاب، أو بنوعه، أو بهما معًا، أو ترتبط بالمضمون ارتباطًا غامضًا.

٣- وظيفة إيحائية: ترتهن بالطريقة أو الأسلوب الذي يُعيّن العنوان به هذا الكتاب.

٤- وظيفة إغرائية: تسعى إلى إغراء القارئ باقتناء الكتاب أو بقراءته.

أما عنوان الرواية فيعد مدخلًا لموضوعها الأساسي، ومفتاحًا لفهم فكر الروائي، وعتبة مهمة من عتبات نصه، يختاره بعناية وبقصد.

" يدل العنوان على شخصيات أو أماكن أو على برنامج سردي؛ فهو يختصر سلفًا مغامرة الرواية، أو يعرض طريقة للنظر إليها، ولكنه لا يكتسب معناه إلا بعد قراءة الرواية... وتنصبّ دراسة العنوان على قيمته الصوتية والدلالية والتصويرية، وعلى علاقاته بالقارئ: ماذا يعني له؟ بم يذكّره؟ كيف يتلقاه؟ كيف يتصرف به تلفظًا واختصارًا؟ وعلاقاته بنص الرواية، وبعناوين روايات المؤلف نفسه، أو النوع الروائي نفسه، أو العصر نفسه "[٢].

ولذلك يمكن النظر إلى عتبة العنوان الروائي عند صنع الله إبراهيم على النحو الآتي:

---

(١) العنوان في الرواية العربية: عبد المالك أشهبون، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١، ط١، ص١٩ ،٢٠.

(٢) معجم مصطلحات نقد الرواية: لطيف زيتوني، دار النهار للنشر، لبنان، ٢٠٠٢، ط١، ص١٢٥ ،١٢٦.

أولًا- رواية تلك الرائحة:

رواية (تلك الرائحة) أولى روايات صنع الله، والتي كتبها عام (١٩٦٦) ولكنها صودرت ولم تُنشر إلا في(١٩٨٦)، وقد عالج فيها بدايات النكسة والهزيمة، ووصف فيها فترة اعتقاله داخل السجن وفترة خروجه منه، وتعد سردًا لأيامه التي قضاها في السجن؛ حيث إن صنع الله إبراهيم كتب هذه الرواية في السجن في الفترة ما بين (١٩٥٩) إلى(١٩٦٤)، وقد ساعده على تهريبها من السجن صديقه (حسين عبد ربه) بعد أن تم الإفراج عنه.

" ولم تكد طباعة الرواية تنتهي حتى صدر الأمر بمصادرتها؛ ففي محاولة منه لإنقاذ كتابه، ذهب صنع الله إلى مقابلة (طلعت خالد) أحد معاوني (عبد القادر حاتم) وزير الإعلام – في ذلك الوقت- وكان برفقته بعض كبار موظفي مصلحة الاستعلامات، كأنما حضروا ليتسلّوا، ويتفرجوا على الكتاب المذكور كظاهرة اجتماعية، تُثير فيهم نوعًا من الفضول الساخر الذي يحمل في طياته حقدًا دفيناً تجاه شخصية الكاتب، وكانت نسخة من الرواية المصادرة مبسوطة أمامهم، وقد غطتها ملاحظات بالقلم الأحمر"(١).

" ويسترجع صنع الله إبراهيم هذا اللقاء بوصفه تجربة مريرة على المستويين الشخصي والسياسي؛ فهو يعاني التطفل الوقح على أشد جوانِب وجوده خصوصية. ومن الواضِح أن الرُقباء الرسميين قد فطنوا إلى نسيج السيرة الذاتية في (تلك الرائحة)، وعلى الأخص تجربة صنع الله إبراهيم الأليمة في السجن "(٢).

تبدأ الرواية بالحديث عن خروج رجل من السجن (لم يذكر اسمه)، وقد كانت نشاطاته السياسية سبب دخوله السجن، وبذلك تُبنى فكرة الرواية – في أساسها – على التجربة الذاتية للكاتب نفسه؛ حيث تعرّض للاعتقال عام ١٩٥٩م بتهمة المؤامرة السياسية، وخرج بعدها بخمس سنوات عام ١٩٦٤م، وكان قد فُرضَت عليه الإقامة الجبرية؛ فعاش سجنه داخل السجن وبعد خروجه منه.

---

(١) خطاب المقدمات في الرواية العربية (التنوع والتشكل والوظائف الفنية): عبد المالك أشهبون، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، مجلد٣٣، ع٢، الكويت، ٢٠٠٤، ص٩٩، ١٠٠.

(٢) صنع الله إبراهيم ورواية تاريخ الرواية: سامية مِحرِز، بحث منشور بمجلة فصول، مجلد١١، ع١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢، ص١٧٣.

انطلق صنع الله في (تلك الرائحة) من تجربته الذاتية في السجن، ولكن الرواية " ببنيتها الفنية الموحدة المتسقة ترتفع عن حدود السيرة الذاتية الخالصة ولا تكون مجرد تعبير عن خيبة أمل أو عن مجرد رؤية نقدية لهذا الواقع الخارجي المُحَدد فحسب؛ بل تُصبِح كذلك رؤية نقدية رافضة – عامة- لواقعها الخاص، أي تُصبِح عملًا روائيًا فنيًا له ذاتيته الخاصة المتميزة(١).

دارت أحداث الرواية حول السجين الشيوعي المثقف، الذي أمضى فترة في سجنه وبعدها أُطلق سراحه ولكنه ظل تحت المراقبة؛ فعاش معنى الهزيمة واليأس، وبخاصة عندما أصبح يتفهم أن واقعه لم يتغير، والرائحة هي هي، لم يتغير شيء.

والرواية تحمل في نصها انفتاحًا دلاليًا منذ عتبة العنوان، وقد أثارت الرواية الشكوك والآراء حولها منذ نشرها لأول مرة؛ فمن النقاد والقراء من يعدها سيرة ذاتية عبّر فيها صاحبها عن جزء مهم من حياته في السجن؛ حيث جاءت أحداثها قريبة من واقعه، ومتقاطعة معه في مواطن كثيرة.

" في مقدمته الاستهلالية لرواية (تلك الرائحة) وتحت عنوان (على سبيل التقديم)، يرفع صنع الله الستار عن مسار الرواية في مواجهة سلطتين أساسيتين:(رقابة الدولة أولًا)، ثم (المجتمع المدني والناشرون جزء منه، لا في مصر وحدها، بل في العالم العربي بأكمله ثانيًا)؛ فهي مثال المُقدمة المُتّقدة التي أرتأى صاحبها التشديد على ظروف النشر بالدرجة الأولى"(٢).

فخلال فترة اعتقال صنع الله، يتعرف على الأوضاع السياسية الطارئة على البلاد، ويقابل أصدقاء جدد (كمال القلش، رؤوف مسعد، عبد الحكيم قاسم)، الذين كان لهم دور كبير في التخفيف من ضغط السجن عليه، وشجعوه فيما بعد على إتمام أعماله الروائية.

---

(١) ثلاثية الرفض والهزيمة- دراسة نقدية لثلاث روايات لصنع الله إبراهيم(تلك الرائحة. نجمة أغسطس. اللجنة): محمود أمين العالم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ط١، ص٥٤، ٥٥.

(٢) خطاب المقدمات في الرواية العربية (التنوع والتشكل والوظائف الفنية): عبد المالك أشهبون، ص٩٩.

" كانت رواية صنع الله إبراهيم تلك الرائحة، جديدة بشكلٍ واضح، وسوف توُصَف لاحقًا بأنها رواية الحداثة الأولى في مصر: لا حبكة ولا تسلسل زمني، بطل لا اسم له ... يدور في الشوارع بلا هدف أو يتمدد على سريره يُدَخِّن، لا شيء ذا بال يحدُث في الرواية اللهم الزيارة اليومية المُنتَظِمة لِرَجُل الأمن ليتأكد من تواجُد هذا الشخص في منزله ليلًا، وعدة فلاش باكات وبعض الصور الموحية، وأسلوب في السرد مُحكم ومُقتَصَد"(١).

والرواية تحمل في طياتها أساليب كثرة منها: الفكاهة، والسخرية، والتوثيق، وغيره مما يحمله صنع الله الفنان الثائر من أساليب.

" لقد وظّف مؤلف (تلك الرائحة) في روايته العديد من الأشكال؛ فجاءت في حجمها الصغير عملًا مكثفًا مُعبّرًا عن موهبة أصيلة ورغبة في التمرد على القصّ العربي التقليدي منه والمنضوي تحت شعار الواقعية الاشتراكية على السواء "(٢).

كانت الرواية في بدايتها تحمل عنوان (الرائحة النتنة في أنفي) ولكن (يوسف إدريس) اعترض في مقدمة الرواية على هذا العنوان؛ حيث يرى أن صاحبها لم يوفق في اختيار عنوان مناسب لها؛ بل يرى أنّ الرواية تحمل في طياتها دلالات أكبر من العنوان وأعمق منه بكثير.

والباحثة تتفق مع هذا الرأي؛ فالعنوان (تلك الرائحة) يحمل في طياته دلالات متنوعة؛ فهو يشير إلى مجموعة من الروائح، منها الإيجابية، وأكثرها سلبية نتنة، كرائحة غازات المعدة والمجاري، ولكن الكاتب بحسة الرمزي يرمز من خلال تلك الرائحة إلى رائحة أخرى، أو عدة روائح، منا روائح: القهر والسجن، والظلم والاستبداد.

---

(١) أدب السجون- مهداة إلى الكاتب الكبير صنع الله إبراهيم: شعبان يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ط١، ص١٣.

(٢) تعدد أشكال الخطاب في رواية تلك الرائحة: نور الدين الجريبي، بحث منشور بمجلة علامات في النقد، مجلد١١، ج٤١، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٠٠١، ص٥٠٨.

" فالرائحة السلبية: تنبعث من عالم القمع، قمع الدولة، وقمع المجتمع؛ إذ يشيدُ العالمُ السابق نفسه من عناصر: السجن السياسي، القهر الطبقي، الحرمان الجنسي؛ حيث يضيع في العناصر السابقة الإنسان الذي يصبح ضحية. والرائحة الإيجابية تنبعث من عالم السارد الحر، الرافض لقمع الدولة السياسي والطبقي، الرافض لقمع المجتمع الجنسي والثقافي؛ حيث يطرح السارد نموذجًا ثقافيًا واجتماعيًا يواجه به القمع، هو نموذج المناضل والمثقف الحر"(١) .

ويبدو أنّ مسألة الروائح الكريهة كانت تؤرق صنع الله – على المستوى الشخصي والنفسي – أكثر من غيره، وقد انطلق من هذه السمة الشخصية عنده إلى توظيف الأمر وتكراره في أكثر من رواية له، وخصَّص رواية (تلك الرائحة) بعنوان مباشر يعبر عن مضمون الفكرة من ناحية، والناحية الأخرى الأهم هو توظيف الفكرة نفسها في التعبير عن رؤيته ونظرته النقدية العامة التي لم يرد التصريح بها بصورة مباشرة، وهو لم يجد حرجًا في التصريح بأزمته مع الروائح الكريهة، والدخول في تفاصيل الأمر؛ بل إنّ الأمر لم يقتصر على هذه الرائحة، في تلك الرواية؛ بل إنه يبدأ روايته **(العمامة والقبعة)** في الصفحة الأولى منها فيقول على لسان السارد:

– " اندفعت وسط الجموع الصاخبة. الحرارة خانقة. الشمس لاهبة. التراب يملأ الجو. العرق يسيل على وجهي وأسفل إبطي. تعثرت في نتوء وسط الطريق كوَّنته القاذورات والعفوشات المتراكمة "(٢).

وكذلك الأمر في رواية (القانون الفرنسي)؛ إذ يبدأها بالحديث عن لقاء السارد الدكتور شكري بعدوه اللدود (حلمي عبد الله) فيقول السارد:

---

(١) روايات صنع الله إبراهيم دراسة تحليلية: فراس عصام، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥، ص٣٠.

(٢) العمامة والقبعة: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٨، ط١، ص٥.

- " صافحته مبتعدًا بوجهي لأتحاشى رائحة فمه التي مزجت بيــن دخان السجائر والتهاب اللثة " [١].

ويقول في مواضع أخرى على لسان السارد:

- "هبَّت عليَّ موجات من روائح العرق الشديد " [٢].
- " انحنى رفيق جارَتي على النافذة يصور السحاب بكاميرا فيديو. وبدأت أشعر بالاختناق من روائح العرق" [٣]. " جلست وأنا أتنهّد شاعرًا بالعرق يسيل تحت إبطي "[٤].

وكذلك الأمر أيضًا في رواية (شرف):

- " من المؤكد أن الحذاء ليس هو المسئول عن المصير الذي آل إليه أشرف عبد العزيز سليمان ... صحيح أن كوتشى صارت رائحته لا تطلق وبليت مقدمته " [٥].
- أراد أن يصف له المكان، فتراءى له مدخله عند محطة المترو الذي تتجمع فيه القاذورات وتفوح منه رائحة المجارى ويغطيه الذباب " [٦].

وفي رواية (ذات):

- " استقبلتها رائحة العفونة المألوفة، المنبعثة من الملاحات، عند مشارف الاسكندرية. لكنها استمرت بل وتضاعفت كلما اقتربت السيارة البيجو بركابها الثمانية ... من سرة المدينة " [٧].

---

(١) رواية القانون الفرنسي: صنع الله إبراهيم، دار الهلال، القاهرة، ص٢ [د.ت.ط].

(٢) المصدر السابق، ص٣.

(٣) السابق، ص٤.

(٤) السابق نفسه، ص١١.

(٥) شرف: صنع الله إبراهيم، دار الهلال، مصر، ١٩٩٧م، ص٧ [د.ط].

(٦) المصدر السابق، ص١٤.

(٧) ذات: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ط٣، ص١١٧.

وفي رواية (بيروت بيروت) في حديثه عن (وديع مسيحة):

- " بيته كان يثير فى النفور والرهبة. فقد كان مظلما في وضح النهار، مزدحما بقطع الاثاث القديم، لا يتردد به صوت، وتفوح فى أرجائه رائحة مميزة هى مزيج من زيت القلى والعفن الناشئ عن رطوبة الجدران " (١).

وفي رواية (ذات) يعبِّر السارد عن التحول الذي طرأ على مدينة الإسكندرية:

- " لم تَخلُ الرحلة من البث: فالأبراج السكنية الجديدة استدعت من عزيز قصة "عبد المنعم جابر" ... والرائحة الجاثمة في كل الأركان أتاحت لصفية أن تروي مُسَلسل الصرف الصحي الذي تحوّلت في ظِله، خلال شهور قليلة، من عروس إلى مباءة"(٢).

هكذا كان صنع الله قد عبّر عن هذه النزعة الشخصية المتمثلة في استقباح الروائح النتنة، والتصريح بها لا التلميح، في أكثر من رواية، مما دفعه إلى إثبات ذلك من خلال عتبة العنوان في رواية (تلك الرائحة) منطلقًا من هذه السمة الشخصية إلى تحميل الأمر بعدًا رمزيًا أهم بكثير من قضيته الشخصية الأولى، جاءت الرائحة في الرواية معبرة عن الفساد والقمع والسجن وغيره من صور الظلم.

يقول(أمبرتو إيكو): " العنوان بالمعنى الإيحائي يقوم ببلبلة الأفكار لا ترتيبها(٣). وعند النظر في البنية النحوية لعنوان الرواية نجد أنه يبدأ باسم الإشارة (تلك)، وينتهي بالكلمة الأخرى (الرائحة) هذا المبتدأ الذي نبحث له عن خبر ولكن لم يصرح به الكاتب، وهو ما يحيل الأمر إلى تعدد التأويلات، واتساع الدلالات، واختلاف أفق التوقع بين قارئ وآخر، وتعدد التساؤلات: هل المقصود الرائحة الحسنة، أم النتنة؟ هل رائحة الإنسان؟ أم رائحة الشوارع؟ ما مصدر تلك الرائحة؟ وغيرها من التساؤلات.

---

(١) رواية بيروت بيروت: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ط٢، ص٢١.

(٢) ذات: صنع الله إبراهيم، ص١٢٥، ١٢٦.

(٣) القارئ النموذجي: أمبرتو إيكو، ترجمة: أحمد بو حسن، ضمن كتاب: طرائق تحليل السرد، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢، ص١٦٢، ١٦٣.

" وفي إطار هذه البنية الناقصة لا يصبح للرائحة المُعَرّفة غير معنى واحد هو (الرائحة غير الطيبة)، وتصبح (تلك) لا مجرد اسم اشارة للبعيد مكانيًا وإنما للبعيد قيميًا ومعنويًا مما يسبغ على هذه البنية دلالة استنكارية تأففية في شكل خطاب تساؤلي. أو لعل الإشارة إلى البعيد قيميًا ومعنويًا التي نستشعرها في (تلك) داخل هذه البنية التعبيرية قد توحي كذلك بالتساؤل عن مصدر تلك الرائحة، أو التساؤل عن سر وجودها وسر السكوت عنها. ولكن أية رائحة؟! "(١).

وقد وردت الإشارة إلى الرائحة في مواضع من الرواية بصورة مباشرة أو بشيء من الإيماء، على النحو الآتي:

١- " وكنت متعبًا أريد أن أذهب إلى دورة المياه. وأطلقت من ظهري رائحة شمتها الطفلة. وقالت: رائحة كاكا. وتجاهلت الأمر. ولكنها عادت تردد رائحة كاكا. فجعلت اتشمم حولي وأقول لها. أين، حتى اختفت الرائحة "(٢).

٢- " وجاءت اختي وقالت: المجاري في البلد طافحة"(٣).

٣- " ومضيت في اتجاه شارع سليمان ثم سرت فيه حتى الميدان. وكانت مياه المجاري تملأ الأرض. والمضخات منصوبة في كل مكان تحملها من داخل المحلات إلى الشارع. وكانت الرائحة لا تطاق"(٤).

في الشاهد الأول تتردد كلمة الرائحة على لسان الطفلة التي دار بينها وبين السارد حوار وتساؤل واستنكار، حين شعرت بانطلاق رائحة نتنة منه هو، ولم يكن رد الفعل عنده إلا الإنكار، ومحاولة إقناعها بأن الأمر على ما يرام.

وفي الشاهد الثاني لم يصرح السارد بالرائحة لكن الأمر لا يحتاج إلى تصريح؛ فالمجاري لا يخرج منها إلا كل رائحة مؤذية.

---

(١) ثلاثية الرفض والهزيمة- دراسة نقدية لثلاث روايات لصنع الله إبراهيم(تلك الرائحة. نجمة أغسطس. اللجنة): محمود أمين العالم، ص٣١، ٣٢.

(٢) تلك الرائحة وقصص أخرى: صنع الله إبراهيم، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ٢٠٠٣م، ط٣، ص٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص٥٧.

(٤) السابق، ص٦٢.

ولكن صنع الله لم يكن يقصد بكل تلك الروائح المعنى الظاهري والدلالة المباشرة للأمر؛ فالأمر عنده يحمل بعدًا رمزيًا أبعد مرمى وأوسع معنى؛ " فالرائحة التي اشتمتها أخت السارد لم تكن سوى رمزية مقنعة تعبر عن خواء الواقع السياسي وفساده المنتشر في البلاد، كما تنتشر رائحة المجاري الفاسدة، فكانت عملية المطابقة هذه عبارة عن صناعة مقصودة؛ أي أنها خطاب مقصود يهدف إلى نقد الواقع وإدانته، عبر ما يلاقيه الفرد في الواقع من قلق وتعذيب، ومصادرة لرأيه "[١].

وهنا رد الفعل يوحي بالاستسلام غير المبرر؛ فرائحة الفساد والظلم لا تحتاج إلى إنكار، ولا إلى إثبات؛ فهي الواقع الذي يعانيه الجميع.

أما الشاهد الثالث فيحدد السارد الموضع بدقة، هذا الموضع التي انبثقت منه مياه المجاري، وملأت الأرض، ويصرح في نهاية الفقرة بشدة أذى الرائحة التي لا تطاق، في هذا المكان الذي لم يكن مكاناً من العشوائيات أو غيرها؛ إذ يوحي هذا التحديد المكاني بعموم نتانة الرائحة (رائحة الفساد والظلم والبطش).

ويبدو أنّ صنع الله كان مولعًا بمسألة الرائحة تلك؛ إذ وقد وردت كلمة (رائحة) في مواضع أخرى لتدل على المعنى المخالف للمواضع السابقة، ألا وهو معنى النظافة؛ إذ يصرح بهذا الوصف للرائحة.

- " ودفنت رأسي في رقبتها. واستمتعت لحظة بنعومة جلدها على خدي، وجعلت أتشمم رائحتها النظيفة "[٢].

ويرى السارد في المترو فتاة فيقول عنها: " وفي حُجرة السيدات لمحتُ جانبًا من وجه امرأة، كانت تُطِل من النافذة، وكانت ترتدي فستاناً أبيض بغير أكمام، وتبدو نظيفةً جدًّا، ولا شك أنها استحمَّت قبل أن تخرج "[٣].

---

(١) الخطاب النقدي في الرواية العربية (الروايات الثلاثية نموذجًا): معاذ بشير عبد العزيز المناصير، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩، ص٤٦.

(٢) تلك الرائحة وقصص أخرى: صنع الله إبراهيم، ص٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص٥٢.

ولذلك تعد الرواية " روايةً حاسمة في التاريخ السياسي وفي التاريخ الأدبي على السواء خلال فترة الستينات؛ فهي لا تقف عند إطلاق (رائحة) تفوح من القمع السياسي وأعراف المجتمع الاستهلاكي البرجوازي في مرحلة التكوين؛ بل تُعَبِّر عن ذلك في لغة أدبية تتميز بصراحة متجردة قلبت المقاييس الأدبية لذلك الزمان "(١).

ولذك فإن مسألة النظافة والرائحة باتت تؤرق الكاتب فظهرت على لغته واختياره عنوان روايته وألفاظ حكاياته داخل الرواية.

ثانيًا- رواية شرف:

تدور أحداث رواية شرف حول وصف حال المجتمع المصري في فترة التطور التكنولوجي وموقف الانبهار الذي عاشه الشعب المصري، أما بطل الرواية فهو (أشرف عبد العزيز سليمان) الذي كان طموحه يتجه نحو امتلاكه وسطًا اجتماعيًا عاليًا، ووسائل ترفيه متنوعة.

والرواية في مجملها تعد " نوعًا من إعادة صياغة تجربة الزنزانة في عمل أدبي ربما يكون أكثر طموحًا وأبعد مرمى "(٢).

فعنوان الرواية (شرف) يحمل بين طياته دلالة الشرف للفرد والمجتمع بصفة عامة، والعنوان عند مقارنته بالأحداث داخل الرواية يتبين أنه يحمل دلالات متنوعة؛ حيث يدخل (شرف) بطل الرواية السجن بعد دفاعه عن (شرفه) وعرضه، والذي اضطره لقتل (جون).

وتأتي المفارقة لتصدم أفق توقع القارئ الذي اعتاد منذ بداية عنوان الرواية الحديث عن (الشرف) وعدم المساس به، إلى أن جاء الوقت للتخلي عنه والتنازل بكلِّ هوان للقاتل والمجرم في السجن وهو (سالم)؛ ربما خوفًا منه أو لينعم بالعيش في سلام وهدوء، وليضمن امتلاكه الطعام والشراب في السجن.

---

(١) صنع الله إبراهيم ورواية تاريخ الرواية: سامية محرز، ص١٧٣.

(٢) الرواية المصرية في التسعينات (شرف الزنزانة: وزنزانة الشرف): نوفل نيوف، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، ع١٧٠، مصر، ١٩٩٩م، ص١٠١.

وكأن صنع الله إبراهيم يريد أن يعبر من خلال مضمون العنوان عن الشيء ونقيضه، عن (الشرف) و (اللاشرف)، عن الإنسان في رحلته من الشرف والتمسك به إلى اللاشرف.

ولذلك لم يكن (شرف) بطل الرواية يمثل بالنسبة لصنع الله شخصًا واحدًا يعبر عن نفسه فقط؛ بل إن الأمر يحمل أبعادًا سياسية، ورؤى فلسفية، عبَّر عنها صنع الله، وهذا يتبين من خلال أهم الخصائص التي بثها في بطل روايته، وهي[١]:

١- أنه يعيش موزعًا بين الواقع والحلم، وبالطبع فإن هذه السمة غالبة على حياة الطبقات الفقيرة المطحونة.

٢- أنه مثل كل الأجيال الجديدة من المصريين يُجيد الإنجليزية أكثر من العربية، وقد ظهر ذلك في محاولته الحديث مع الخواجة، صحيح إنه كان يتلعثم لكنه في النهاية كان يتمكن من الإبانة عن نفسه.

٣- معرفته بالماركات الأجنبية؛ فهو عندما ينظر إلى شخص مثلًا يستطيع أن يُحدد ماركات ملابسه بدءًا من القميص وربطة العُنُق حتى الحذاء؛ بل إنه يعرف إكسسوارات الملابس، وأسماء الملابس الرياضية وماركاتها، وماركات السيارات والفروق بينها، وهو يُجيد اللعب الذي يحتاج إلى ذكر كلمات أجنبية، وهو يلعبها في السجن مع زملائه، بعد أن كان يلعبها مع أخته وأمه وأولاد خالته في دمنهور.

٤- وشرف له معرفة واسعة كذلك بالأفلام الأجنبية، ولهذا كان في بعض الأحيان يقص على المقربين منه من النزلاء قصص بعض الأفلام ثم يسمع منهم قصص بعض الأفلام العربية.

إن القارئ منذ معرفته عنوان الرواية يبحث عن هذا المفهوم داخل النص؛ " فالعتبات مهمة في مجال تحليل النص الأدبي؛ لأنها تسعف الباحث، أو الناقد أو المحلل في فهم النص الأدبي وتفسيره وتأويله، أو تفكيكه وتركيبه... ويعد العنوان

---

(١) شرف- صنع الله إبراهيم- ملحمة الحياة المعاصرة: حامد يوسف أبو أحمد، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، ع١٤٤، مصر، ١٩٩٧م، ص٧٠.

من أهم العتبات المهمة في دراسة النص الأدبي أو الفني؛ فهو المحور الدلالي الذي يدور حوله مضمون النص وتُبنى عليه دلالاته السطحية والعميقة "[١] .

إن صنع الله انطلق في حديثه عن الشرف إلى قضايا عامة، أراد أن يقوم بعملية إسقاط عام على ما آلت إليه أحوال المجتمع المصري من التغيرات والانصهار مع الغربيين؛ فالأمر أصبح يمثل بالنسبة له طمسًا للهوية اللغوية، والثقافية وغيرهما؛ مما يجعله يوازن بين المجتمع المصري بين الشرف واللاشرف.

ثالثًا- رواية نجمة أغسطس:

الرواية تعد سيرة ذاتية عن الكاتب نفسه، أو رحلة توثيقية، نسجها صنع الله بعد خروجه من السجن سنة ١٩٦٥م، وقد ذهب إلى أسوان ليشاهد بنفسه عملية بناء السد العالي؛ فجاءت الرواية معبرة عن هذه الرحلة، تمثل توثيقًا تسجيليًا لمراحل بناء السد العالي بتفاصيلها الدقيقة.

وتعد الرواية ثاني أعمال صنع الله الروائية، وقد كتب هذه الرواية أثناء اعتقاله في سجن الواحات في الفترة ما بين (١٩٥٩ إلى ١٩٦٤م)، وهي إهداء إلى روح صديقه (شهدي عطية الشافعي) الذي فقده داخل السجن، وهي تعد امتدادًا لما كتبه صنع الله مع صديقيه: (كمال القلش) و (رؤوف سعد) في كتاب (إنسان السد العالي)، أما بطل الرواية فتمثل في الصحفي الذي ذهب لمنطقة السد ورَصد موقع الحفر وقام بتصويره، وشاهد بعينيه عملية تحويل مسار نهر النيل.

" رواية (نجمة أغسطس) رواية جادة، تُقَدِّم صنع الله إبراهيم مرة أُخرى روائيًا غنائيًا عَذبًا يتجاوز غناءه هذه المرة تجربته الذاتية ليتخذ طابعًا ملحميًا في الوقت نفسه الذي يُقَدِّم فيه للروائيين الجُدد المهمومين بقضية الشكل حلولًا جذرية، ويؤكِّد

(١) سيموطيقا العنوان: جميل حمداوي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، المغرب،٢٠٢٠، ط٢، ص٥، ٦.

لهم أيضًا أن زمان التدهور الثقافي البورجوازي يمكن أن يخلُق فَنًا جميلًا، علينا فقط أن نتعمق ونتوغل في جوهر ما يجري... ومن قِبَلِه نرى المستقبل "(١).

تبدأ الرواية في الحديث عن بناء السد العالي، وينتقل من حدث إلى آخر؛ فيعرض لمسألة علاقة البطل بالفتاة الروسية التي باءت بالفشل، ثم يعرض لمايكل أنجلو النحات الإيطالي، ورحلة البطل إلى معبد (أبو سمبل)، وكذلك يتذاكر فترة سجن الواحات التي عاش مرارتها.

كما وصفت الرواية فكرة التناقض والتشتت التي عانى منها المصريون خلال فترة بناء السد العالي، وصرَّح فيها الكاتب بفكرة التصوير الإعلامي المزيف الذي يعرض صورًا غير حقيقية لتلك العملية، كما صورت الرواية الترابط والتطابق بين شخصيتين داخل الرواية هما: (جمال عبد الناصر) و(رمسيس الثاني).

أما عن العنوان ودلالته في الرواية فهو يتكون من كلمتين (نجمة) إشارة إلى السماء والليل والظلام، و(أغسطس) وهو وحدة زمنية مهمة لها علاقة بالمكان (أسوان) حيث ارتفاع درجة الحرارة في هذا الشهر.

" تطرح هذه الرواية في موضوعها وشكلها وجهة نظر في التجربة الناصرية(١٩٥٢- ١٩٧٠) بوصفها التجربة التي أنجزت واحدة من أهم المراحل التاريخية في التطور الاجتماعي والسياسي لمصر المعاصرة، وهي مرحلة الدولة الوطنية المصرية في التحويل المدني للمجتمع المصري "(٢).

وقد ذُكِرَت كلمة (النجمة) داخل الرواية في أكثر من موضع، وهي تعكس دلالات رمزية:

الموضع الأول: عند خروج السارد من منطقة السد متجهًا إلى معبد (أبو سنبل) وقد أصبح خبيرًا بالطرق: " فتحت عيني فطالعتني النجمة الوحيدة وسط السماء ... ظللت

---

(١) من تلك الرائحة إلى نجمة أغُسطس عالم يتقدم رغم الآلام والأخطاء: فريدة النقاش، بحث منشور بمجلة الطليعة، مجلد١١، ع١٠، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٥، ص١٧٢.

(٢) روايات صنع الله إبراهيم دراسة تحليلية: فراس عصام، ص٣٣.

أتأمل النجمة التي انفردت بصفحة السماء. وغفوت... استيقظت في الليل فطالعتني آلاف النجوم المتناثرة المتباينة الأحجام "(١).

الموضع الثاني- في طريق السارد إلى المعبد؛ حيث يستطرد كثيرًا في الحديث عن النجمة التي أرّقته وشغلته: " في السابعة والنصف تمامًا بزغت النجمة الوحيدة. وخُيّل إليّ أنها كانت تتجه إلى الغرب ثم توقفت. وفكرت بأن أقوم لأسأل أحدًا عنها. فلا بد أن الريس يعرفها. ولعلها أن تكون نجمة الشعري اليمانية التي كانت تظهر لقدماء المصريين مع حلول الفيضان، أو الدب القطبي الشهير الذي يَستَرشِد به البحارة التائهون. ولكني لم أجد حماسة للقيام واحسست أن اية اجابة احصل عليها لن تُغَير من الامر شيئًا. انفردت النجمة بالسماء طوال نصف ساعة إلى جانب القمر الذي بزغ نصفًا. وفي الثامنة ظهرت مجموعة جديدة من النجوم الصغيرة المتناثرة ولكنها ظلت محتفظة بمسافة واضحة لا تتغير بينها وبين النجمة الكبيرة واستمر وضع هذه ثابتًا نصف ساعة اخرى ثم اختفت "(٢).

بدأ هنا يظهر على الكاتب اتجاهه نحو التفسير الأسطوري للنجمة التي أرقته وأخذ يبحث عن تفسير لها.

الموضع الثالث- عند اقتراب نهاية الرحلة النهرية، والنزول في (أبو سنبل): " وتابعت الشمس تغرُب حتى اختفت وبزغ القمر من الشرق. بحثت عن النجمة الوحيدة دون جدوى ثم رأيتها فجأة أمامي واهنة صغيرة "(٣).

أما أغسطس فلعل الكاتب أراد به الإشارة إلى طبيعة الجو الحار في أسوان؛ فاختار شهر أغسطس، وقد وردت كلمة (أغسطس) في حديثه حول أن: (أسعار الفنادق الآن رخيصة فلا أحد يفد إلى أسوان في أغسطس) (٤).

ومن الواضح أن سبب ذلك هو الحر الشديد الذي يصل أحيانًا إلى درجة ٦٠مئوية. وهذا ما جعله يقول:

---

(١) نجمة أغسطس: صنع الله إبراهيم، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م، ط٣، ص١٦٣.

(٢) نجمة أغسطس: صنع الله إبراهيم، ص١٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٨٣.

(٤) السابق، ص١١.

- " مشيت ببطء أنوء بحمل الحقيبة. وأجبرتني أشعة الشمس القوية على أن أطبق من جفوني بعض الشيء " [١].
- " شعرت بحرارة الغرفة وجوها الخانق " [٢].

-"فرغ الحلاق من شعري فدفعت حسابي وخرجت مكرهًا إلى الطريق المشتعل" [٣].

- " كان الأتوبيس مزدحمًا وعندما حاولنا الركوب أغلق أحد الركاب الباب في وجهنا قائلا ان الحر في الداخل لا يحتمل " [٤] .

إن أغسطس في الرواية ليس مجرد شهر (زمنيًا أو فصليًا) وإنما هو يُعَبِّر أساسًا عن جسامة الجهد المبذول لتحقيق أخطر عمل في أشد الأوقات حرارة وقيظًا وهو بناء السد العالي في أسوان[٥].

ولذلك جاءت نجمة أغسطس شاهدة على هذا الحدث العظيم وهو بناء السد، برؤية صاحبها وهو شاهد عيان، مزج فيها بين تجربته الشخصية ورؤيته الفلسفية وخبرته الفنية؛ فجمع بين التوثيقي والتاريخي، ولم يخل الأمر من التخييل والصبغة الفنية.

رابعًا- رواية ذات:

إن النصوص الروائية عند صنع الله إبراهيم تشير إلى فكرة التمرُّد العام الكامن في شخصيته، منذ بدأ في تأليف أول عمل روائي له، هذا التمرد الذي يؤكد أنّ صنع الله مبدع فيه جرأة مخالفة لما هو معهود؛ وليس أدل على ذلك من روايته المنسية (٦٧) التي لم يستطع نشرها لجرأتها في تصوير الواقع السياسي، مما جعلها غير منشورة حتى عام ٢٠١٥م، وهي تعد امتدادًا لروايته (تلك الرائحة) وروايته (شرف) وكذلك روايته (ذات).

---

(١) نجمة أغسطس: صنع الله إبراهيم، ص٨.

(٢) المصدر السابق، ص١١.

(٣) السابق، ص٧٩.

(٤) السابق نفسه، ص٨٩.

(٥) ثلاثية الرفض والهزيمة- دراسة نقدية لثلاث روايات لصنع الله إبراهيم(تلك الرائحة. نجمة أغسطس. اللجنة): محمود أمين العالم، ص٥٨.

رواية (ذات) تنطلق من موضوع رواية (شرف) في وصفها لواقع المجتمع المصري فترة الحكم الناصري؛ حيث " ينقل إلينا صنع الله في روايته (ذات) أنموذجًا من وجدانه السياسي مُضيفًا على اسم (ذات) معنى الجوهر الذي يُعَبِّر من خلاله عن امرأة مصرية من الطبقة المتوسطة بشكل يجعلها تختزل الهوية أو الذات " (١).

ذات هي بطلة الرواية، عبّر الكاتب – من خلالها – عن أفكاره؛ بل تُعدّ رواية ذات من أهم الروايات التي تناولت بشكل بارز أفكار جيل كامل عانى من التطور السريع، واختلال الواقع الاجتماعي المصري بعد انفتاح المجتمع على النظام الاقتصادي العالمي.

جاءت ذات على مدار الرواية تبحث عن هويتها في ظل الهويات المتداخلة؛ " فهوية الإنسان هي مرجعيته وذاتيته، هي منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها " (٢).

" ففي رواية (ذات) درجتان أو نوعان متلازمان من الذات: ذات الأنا، وذات الفرد، ومثال ذلك: نمو فتاة مصرية تعيش مراحل الانتقال الرئاسي الثلاث، من عبد الناصر إلى السادات ومبارك. وهناك أيضًا هوية الجماعة أو الهوية الاجتماعية، ومثال ذلك: نموها في البيئة الاجتماعية: (العلاقة الزواجية مع عبد المجيد ثم البنتين والولد)، (وعلاقات الجوار وخاصة مع الشنقيطي وسميحة)، (وعلاقات العمل وخاصة مع همت ومنير)(٣).

---

(١) معجم صنع الله إبراهيم الروائي (بين السياسة والتاريخ): هدى ملاحي، بحث منشور بمجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، ع١١، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ص٤٣، ٤٤.

(٢) الذات والآخر في الشرق والغرب: حسن شحاتة، ص٦٥.

(٣) مخاوف ذات من العولمة دراسة تطبيقية في علم اجتماع الأدب: إلهام غالي، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، ع٢٣، جامعة المنصورة كلية الآداب، ١٩٩٨، ص٢٦٩.

فالرواية تشير – منذ عنوانها – إلى بحث الأنا عن نفسها في ضوء معايشتها للآخر؛ ولذلك سلَّط صنع الله إبراهيم الضوء على قضية مهمة من خلال تكرار قوله: (مسيرة الهدم والبناء) في الرواية لأكثر من مرة [١]؛ وكأنه يريد أن يبين أنّ ذات لم تتمكن من ذاتها إلا بعد تنحية ذاتها وإعادة بنائها مرة أخرى في ضوء معايشتها الآخرين.

فمع أنّ مضمون كلمة (ذات) يوحي بالذاتية أو الفردية أو الخصوصية، لكننا نجد أنفسنا " إزاء عمل سوف يدخُل بنا في مُنحنيات التحليل النفسي والمُشكلات الخاصة بهذه الذات، رغم ذلك فإن الصيغة الصرفية للاسم، وعلاقته ببقية مُفردات الغُلاف، تُشَكك في هذا الاتجاه في التفكير؛ فذات اسم نكرة، بدون (أل) التعريف، ومن ثم فإنها ليست ذاتًا خاصة بعينها، وإنما هي ذات ما، مما يعني نوعًا من العمومية أي الخروج عن الخصوصية. وهذه الذات (كما تصوَّرها محي الدين اللباد مُصَمِّم الغُلاف) هي ذات مُصمتة، خالية من الملامح سوى الحِجاب ... وهي عامة تُشير إلى بعض الخصائص العامة جدًا للشخصية. وبالإضافة إلى هذه الذات التي يحتل اسمها الذي يتخذ شكل ورقة التسعير المُلصقة على السِلَع في أعلى الغُلاف، وصورتها أسفله، نجد وسط الغُلاف مجموعة من أغلِفة المُعلبات التي تُشير إلى عَدد من السِلَع الاستهلاكية فوق مائدة فُرِشَت بأوراق الصُحُف، وهي جميعًا عناصِر موضوعية، خارج الذات، وهي تَشغَل الحَيز الأكبر من اللوحة، بحيثُ يمكن القول إنها تحتَل جزءًا كبيرًا من هذه الذات، لِتُصبِحَ الذات عند استيعاب الغُلاف هي هذا الصِراع بين المعلومات بالمعنى الواسع للمعلومة التي تُعطيها العلامات أو ما نسميه بمحتوى العناصِر الشكلية المكونة للغُلاف، صراع بين الخصوصية والعمومية (التي تُشير إلى الوثائقية) فيبدو الانتصار فيه للشق الثاني"[٢].

---

(١) ينظر: ذات: صنع الله إبراهيم، ص٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١، ١٥٣.

(٢) قراءة في رواية ذات لصنع الله إبراهيم(قاتلة الذات وثيقة الإدانة): سيد البحراوي، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، مجلد٩، ع٨٢، مصر، ١٩٩٢، ص١٦.

جاءت ذات في الرواية تبحث عن ذاتها في ظل تعدد الهويات، وفي ظل التطور السريع، والانفتاح الغريب، هذا الانفتاح الذي شمل جوانب الحياة كلها، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية، وكيف أنّ ذات وزوجها يريدان أن يعيشا في ظل هذه التغيرات الجذرية، وأن يصارعا هذه التحديات الطارئة عليهما.

خامسًا- رواية اللجنة:

يمكن القول إن صنع الله إبراهيم بما جاء في نصوص رواياته، من احتكاك بالتاريخ، وسرد للوقائع، استطاع أن يعبِّر – بكل صراحة – عن رأيه، ويصوِّر أزمات الوطن العربي كله، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية، ساعده في ذلك جرأته المعهودة، واتساع ثقافته، وامتلاكه أساليب متنوعة بين الواقعية والخيال، والسخرية، والمزج بين التاريخ والتوثيق، وغيره مما بنى عليه صنع الله صرحه الروائي.

رواية اللجنة هي سرد لتجربة صنع الله الذاتية، في فترة اعتقاله، كتبها ما بين عامي: ١٩٧٩م إلى ١٩٨٠م، والعنوان يتضمن كلمة واحدة لكنها تحيل إلى دلالات متعددة ترجع جميعها إلى السلطة والقانون، والحكم، والسياسة، وغيرها من الدلالات.

مصطلح (اللجنة) بين المعجمية والسياقية:

الناحية اللغوية المعجمية:

تحيل (اللجنة) إلى فضاء خاص تُنجز داخله وظائف خاصة كإدارة مسائل قانونية، اجتماعية، اقتصادية تتعلق بشؤون الحياة. كما تُحيل من جهة أُخرى إلى ما هو جماعي في مقابل ما هو فردي؛ فاللجنة هي اجتماع أو مجموع أعضاء؛ إذ لا يمكن تصور فرد يكوّن لجنة أو لجنة تتكون من عنصر واحد.

الناحية السياقية المؤسسة داخل النص:

وفي هذا الإطار يمكن أن نتعرف على الخصائص التي تطبع المسار الدلالي العام للنص ككل. وأيضًا خصائص الغموض والتناقُض والازدواجية؛ فاللجنة تتأرجح في دلالتها داخل مسار ثنائي يراوح بين: القوة والضعف، والضآلة وضخامة النفوذ، وبين الخفاء والتجلي؛ فأعضاء اللجنة نعرفهم بالوصف فقط: العانسة والعجوز، ثم

الرئيس والأشقر، والقصير والبدين، إلى جانب العسكريين والعسكمدنيين أو المدنعسكريين، مما يُعطي للجنة دلالتها كإطار تنظيمي محدود يتكون من مجموعة أشخاص هدفهم الظاهر امتهان البطل في شخصيته وقدراته المعرفية"(١).

جاءت الرواية معبرة عن واقع المجتمع المصري وما آلت إليه سياسة الانفتاح، وأثرها في المشروعات التنموية، ونتائج التبعية الاقتصادية وأثرها في الاقتصاد المصري وطبقات المجتمع، وقد اعتمد صنع الله في تصوير كل ذلك – كعادته الفنية – على أسلوب السخرية وجلد الذات.

" رواية اللجنة من خلال هذا الارتباط بمسرح الواقع، تُشَكِّل شرارة من شرارات الجمرة الإبداعية لـــــــصنع الله إبراهيم المفتوحة أبدًا على ريح (التجريب)، والذي لا يروم البحث عن نمطية مستقرة في الكتابة ليركن إليها، وإنما يطلب ذاته باستمرار كرد فعل إبداعي ضد واقع مطمور وسط تناقضاته وتشظياته تاريخًا وكتابة "(٢).

كانت نهاية الرواية تمثل كسرًا لأفق توقع المتلقي؛ إذ يضطر الراوي – آسفًا – في النهاية إلى أكل نفسه؛ وكأنه يريد أن يُعرِّي اللجنة أمام نفسها، ويقيم الحُجّة على سوء سياستها بعد أن اضطر الراوي (الذي يرمز إلى الشعب كله) إلى أكل نفسه، وكأنه استشراف للمستقبل، وقراءة لمصير هذا الشعب من الثورة والخروج.

" هذه الرواية صريحة من حيث هي حوار حقيقي وحاد مع التطور الاجتماعي الحديث لمصر بدءًا من ١٩٥٢(تأسيس أول سلطة وطنية مصرية كاملة) وحتى ١٩٨١(أواخر عهد نظام السادات– نظام الانفتاح الاقتصادي)، وهي حافلة بإحالات تاريخية اجتماعية وسياسية هي أقرب ما تكون إلى الحقائق التاريخية في الزمن المذكور"(٣).

---

(١) مسلسل الهيمنة والتبعية مشروع قراءة اقتصادية سياسية لرواية اللجنة لصـــنع الله إبـــراهيم: الهادي الورد، بحث منشور بمجلة الملتقى، ع٤، المغرب، ١٩٩٩م، ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢ ،١٣٣.

(٣) روايات صنع الله إبراهيم دراسة تحليلية: فراس عصام، ص٥٥.

ولذلك تحمل الرواية تصويرًا لواقع المجتمع المصري، وتدهور أحواله من الناحية الاقتصادية والسياسية، نتيجة الرأسمالية وما آلت إليه سياسة الانفتاح الاقتصادي.

فصنع الله في اختياره لعنوان الرواية انطلق من واقعه؛ بل من تجربته الذاتية، مصوِّرًا ما حدث معه، منطلقًا من هذا الحدث إلى مجموعة أحداث أخرى حملتها الرواية، واختار لروايته نهاية أثارت المتلقي وتركت باب التأويل والتخيل في انفتاح تام.

بدأت رواية اللجنة " بلهجة الاستسلام، فقد جاء المُترشِّح مُتنازلًا عن القيم التي نشأ عليها، وبلغ استسلامه درجة من التملُق والتأقلُم، أوديا به إلى الإهانة والاحتقار؛ فثار لكرامته، وحُكِمَ عليه بتدمير الذات، وبين الاستسلام وتدمير الذات مراوحة بين التنازُل والرفض، استسلم فأُهين، وثار فحوكم، ترك اللجنة وحاول الاندماج في المجتمع؛ فرفضه المجتمع، وأصدرت اللجنة حكمًا قاسيًا عليه" (١) .

وكانت النهاية هي حكمه الغريب على نفسه بأكلها، تاركًا بهذه النهاية المتلقي في حيرة من أمره، يتساءل: كيف له أن يأكل نفسه؟ هل يستطيع؟ ما الفائدة؟ وغيرها من التساؤلات، لكن الأمر يحمل بعدًا رمزيًا يتمثل في أنّ أكل النفس هو الاستسلام الذي يؤتي في النهاية إلى الموت البطيء بوصفه نتيجة حتمية لهذا الاستسلام.

سادسًا- رواية بيروت بيروت:

رواية (بيروت بيروت) لها طابع خاص، مزج فيها صنع الله بين الجانبين: الأدبي والتاريخي، الشخصي والعام، والرواية تصور واقعًا مريرًا عاشته لبنان، شاهده صنع الله في رحلته بحثًا عن ناشر لكتابه الممنوع من النشر في بلده مصر وهو روايته (الرواية المنسية)، صوَّرت رواية (بيروت بيروت) الصراعات الداخلية والخارجية الناتجة عن الحرب، وعبّرت عن الآلام الإنسانية والنفسية التي خلَّفتها تلك الحرب، وأشارت إلى الضغوط المادية التي نتجت عن ويلات الحرب، ونتائج ذلك كله.

---

(١) السيرة الذاتية صانعة للرواية (رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم أنموذجًا): فايز صلاح قاسم عثامنة، بحث منشور بمجلة الآداب، مجلد٣١، ع١، جامعة الملك سعود- كلية الآداب، ٢٠١٩، ص١٠١.

تعرض الرواية الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ إلى ١٩٩٠)، وتبدأ الأحداث بالكاتب الذي ذهب لبيروت ليبحث عن ناشر لكتابه، وفي أثناء فترة إقامته عند صديق له في بيروت يقابل (أنطوانيت) المخرجة اللبنانية، وتطلب منه كتابة سيناريو لها عن فيلمها الوثائقي عن الحرب في لبنان.

والرواية تُقَدِّم رؤية نقدية للحرب اللبنانية روائيًا عبر منهج يعتمد على قوة الوثيقة في طرح خطاب روائي عميق، ولذلك يرى (علي الراعي) أنّ الرواية تعد عملًا فذًا؛ فيقول: " علامة العمل الجيد عندي أنك تشعر بخسارة فادحة حين تتخيل أنه لم يكتب قط، أو أنه اختفى من بعد. وهذا هو حالي مع بيروت بيروت "، كما رأى (أبو المعاطي أبو النجا) أنّ الرواية تمثِّل إبداعًا مجنونًا؛ فيقول: " كتابة رواية جيدة بكل المقاييس نوع من المغامرة، أما كتابة رواية عن الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها فمغامرة تقترب من حافة الجنون! "[١].

انطلق صنع الله في حديثه عن لبنان إلى تصوير رؤيته الفكرية، وآرائه السياسية، ونظرته للعالم العربي برمَّته، معتمدًا على تكرار اسم بيروت مرتين في العنوان نفسه، وكأن التكرار يشير إلى اتساع الهوَّة ما بين بيروت وبيروت، بيروت قبل الحرب وبيروت بعد الحرب، بيروت والحرية قبل الحرب وبعدها، وليبرالية النشر وحرية التأليف، بيروت قبل السفر إليها وبيروت بعد حمل الحقيبة والخروج منها منهزمًا؛ إذ فشل في نشر روايته كما كان يأمل!

" والرواية تعد وثيقة أدبية، تكشف عن التناقُضات داخل المُجتمع اللبناني التي بلغت ذروتها في حرب أهلية دموية دامت أكثر من خمسة عشر عامًا. وفي مستوى آخر لا يقل أهمية، تكشف (بيروت بيروت) النقاب عن أسطورة أخرى؛ أسطورة بيروت بوصفها ملاذ النشر في المنطقة؛ فهي بخلاف العواصم العربية الأخرى؛ حيث تشتهر الأنظمة بإحكام قبضتها على الأمور الثقافية، كانت حسنة السُمعة قبل الحرب الأهلية بل بعدها بوصفها أكثر أسواق النشر (ليبرالية) في العالم العربي "[٢].

---

(١) رواية بيروت بيروت: صنع الله إبراهيم، الغلاف الأخير.

(٢) صنع الله إبراهيم ورواية تاريخ الرواية: سامية مِحرِز، ص١٧٦.

لذلك يصف صنع الله إبراهيم مسألة الحرية في النشر في بيروت، هذه الحرية التي كانت سببًا في انقلاب أمور النشر على أصحابها المؤلفين؛ إذ أصبح هناك ما يمكن تسميته بالسرقة؛ إذ وصفهم صنع الله باللصوص؛ فقال:

" أشار وديع إلى كتاب لنجيب محفوظ في حجم غير مألوف، وآخر لجورجي زيدان ذى غلاف رخيص باهت الألوان، وقال:

- هذان الكتابان مزوران.

أبديت دهشتي، فقال:

- إنهما مصوران عن الطبعة الأصلية. النشر هنا لا يخضع لقواعد، وليست له تقاليد. وأغلب الناشرين لصوص. انهم يتفقون معك على أن يطبعوا من الكتاب ثلاثة آلاف نُسخة مثلا ويطبعون في السر خمسة. ثم يتملصون من دفع حقوقك مُعتذرين بأن كتابك لم تُوَزّع منه غير نسخ محدودة "(١).

أما بالنسبة للسارد فيلتقي (عدنان الصباغ) وزوجته (لميا)، وهما يملكان دار نشر، واستطاع أن يجد ناشرًا لكتابه من خلال ذلك الغرض، ولكن سرعان ما أدركت (لميا) أمورًا تتعلق بطبيعة الكتاب ونشره؛ فدار هذا الحوار بينهما:

- مشكلة كتابك أن توزيعه يكاد يكون مستحيلًا.

- لماذا؟

- أنت لم تترك نظامًا واحدًا من الأنظمة العربية دون تعريض. ثم إن هناك قدرًا كبيرًا من الجنس "(٢).

وفي موضع آخر تؤكد له الأمر نفسه عند محاولة إقناعه بنشر كتابه عن طريق شركة سويسرية؛ فتقول:

- ستوزعه على القراء العرب.

- في سويسرا؟

---

(١) رواية بيروت بيروت: صنع الله إبراهيم، ص٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٢.

- لا يا عبيط. استخدم مخك. الكتاب لم يترك نظاما عربيا واحدا دون تعريض. ثم هناك ما به من جنس(١).

وفي النهاية تتضح الصورة للكاتب من خلال الحديث الذي دار بينه وبين "لميا":" إنه مُستَعِد للمغامرة من أجلك بسبب الوعد الذي أعطاه لك ولكن في هذه الحالة يجب أن تتنازل عن كافة حقوقك "(٢).

وتنتهي الرواية بمشهد التقاء السارد مع (لميا) بعد أن فشل في نشر كتابه، ثم يلتقط حقيبته ويرجع مرة أخرى إلى وطنه.

الخاتمة:

كان الروائيون من جيل الستينات قد تميزوا بالنزعة الواقعية التي تحاول الدخول في عالم الحقيقة بصراحة وجرأة؛ معتمدين في ذلك على حسّهم الأدبي، وثقافتهم النقدية، وتمكنهم اللغوي، أما صنع الله فهو أبرز هؤلاء؛ بنتاجه الأدبي الغزير، وجرأته البالغة، وصراحته اللاذعة. ولكن تبدو روايات صنع الله إبراهيم كلها مستعصية على الفهم للوهلة الأولى؛ إذ يصبغها بحسّه الفكاهي، ونظرته النقدية، وجرأته المعهودة، ورمزيته الإيحائية، ويتخلل ذلك كله سخريته الدائمة.

ولذلك احتل العنوان الروائي عند صنع الله إبراهيم أهمية خاصة؛ حيث عمد على اختياره بعناية فائقة، مستعيناً بحسه النقدي، ومقدرته الأدبية؛ فجاء العنوان في كل رواية يحمل بعدًا دلاليًا يعين المتلقي على الولوج إلى عالم النص، ويعد مفتاحًا لفهم مضمون الرواية.

---

(١) رواية بيروت بيروت: صنع الله إبراهيم ص٢٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٩.

قائمة المصادر والمراجع

- أدب السجون- مهداة إلى الكاتب الكبير صنع الله إبراهيم: شعبان يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ط١.
- الاستهلال السردي في الرواية السعودية المعاصرة: غازي القصيبي وتركي الحمد نموذجًا، منصور بن محمد بن راشد البلوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١٢م.
- تعدد أشكال الخطاب في رواية تلك الرائحة: نور الدين الجريبي، بحث منشور بمجلة علامات في النقد، مجلد١١، ج٤١، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٠٠١م.
- تلك الرائحة وقصص أخرى: صنع الله إبراهيم، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ٢٠٠٣م، ط٣.
- ثلاثية الرفض والهزيمة- دراسة نقدية لثلاث روايات لصنع الله إبراهيم(تلك الرائحة. نجمة أغسطس. اللجنة): محمود أمين العالم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ط١.
- خطاب المقدمات في الرواية العربية (التنوع والتشكل والوظائف الفنية): عبد المالك أشهبون، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، مجلد٣٣، ع٢، الكويت، ٢٠٠٤.
- الخطاب النقدي في الرواية العربية (الروايات الثلاثية نموذجًا): معاذ بشير عبد العزيز المناصير، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م.
- الذات والآخر في الشرق والغرب: حسن شحاتة، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م، ط١.
- ذات: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ط٣.
- روايات صنع الله إبراهيم دراسة تحليلية: فراس عصام، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.
- رواية بيروت بيروت: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ط٢.

- رواية القانون الفرنسي: صنع الله إبراهيم، دار الهلال، القاهرة [د.ت.ط].
- الرواية المصرية في التسعينات (شرف الزنزانة: وزنزانة الشرف): نوفل نيوف، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، ع١٧٠، مصر، ١٩٩٩م.
- السيرة الذاتية صانعة للرواية (رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم أنموذجًا): فايز صلاح قاسم عثامنة، بحث منشور بمجلة الآداب، مجلد٣١، ع١، جامعة الملك سعود- كلية الآداب، ٢٠١٩م.
- سيموطيقا العنوان: جميل حمداوي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، المغرب، ٢٠٢٠، ط٢.
- شرف- صنع الله إبراهيم- ملحمة الحياة المعاصرة: حامد يوسف أبو أحمد، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، ع١٤٤، مصر، ١٩٩٧م.
- شرف: صنع الله إبراهيم، دار الهلال، مصر، ١٩٩٧م [د.ط].
- صنع الله إبراهيم ورواية تاريخ الرواية: سامية مِحرِز، بحث منشور بمجلة فصول، مجلد١١، ع١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢.
- عتبات النص الأدبي (بحث نظري): حميد لحمداني، بحث منشور بمجلة علامات، م١٢، ج٤٦، المغرب، ٢٠٠٢.
- العمامة والقبعة: صنع الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٨، ط١.
- العنوان في الرواية العربية: عبد المالك أشهبون، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١، ط١.
- القارئ النموذجي: أمبرتو إيكو، ترجمة: أحمد بو حسن، ضمن كتاب: طرائق تحليل السرد، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢م.
- قراءة في رواية ذات لصنع الله إبراهيم(قاتلة الذات وثيقة الإدانة): سيد البحراوي، بحث منشور بمجلة أدب ونقد، مجلد٩، ع٨٢، مصر، ١٩٩٢م.
- مخاوف ذات من العولمة دراسة تطبيقية في علم اجتماع الأدب: إلهام غالي، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، ع٢٣، جامعة المنصورة كلية الآداب، ١٩٩٨.

- مسلسل الهيمنة والتبعية مشروع قراءة اقتصادية سياسية لرواية اللجنة لـــــــصنع الله إبراهيم: الهادي الورد، بحث منشور بمجلة الملتقى، ع٤، المغرب، ١٩٩٩م.
- معجم صنع الله إبراهيم الروائي (بين السياسة والتاريخ): هدى ملاحي، بحث منشور بمجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، ع١١، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧م.
- معجم مصطلحات نقد الرواية: لطيف زيتوني، دار النهار للنشر، لبنان، ٢٠٠٢، ط١.
- من تلك الرائحة إلى نجمة أغُسطس عالم يتقدم رغم الآلام والأخطاء: فريدة النقاش، بحث منشور بمجلة الطليعة، مجلد١١، ع١٠، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٥.
- نجمة أغسطس: صنع الله إبراهيم، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م، ط٣.